حديث القرآن عن القرآن

د. حمزة السر محمد الحسن

Abstract:

The present paper has explored in-depth the description of the Glorious Qura'an of itself, which then set out to group the description under three major clear-cut categories. The first class is the account of the Glorious Qura'an of itself using attributes directly derived from the Fairish Names of Allah; the second is the use of certain attributes which has special effects on Muslims viewed separately from other denominations, whereas the third is a broad-spectrum description.

The paper has highlighted the Call of the Glorious Qura'an for the entire mankind irrespective of their faith or sects to have faith in the Holy Qura'an, and subsequently adopts it as a method of life. Then, the Holy Qura'an demonstrated fairly evidently the varied stances of people towards the Qura'anic Call. In view of the said Call, they were divided into believers, infidels or hypocrites.

The paper has purposely focused on the disbelievers' allegation that the Glorious Qura'an is but absolute innovation or not a word of Allah. The Glorious Qura'an responded to their falsehood by inviting them to produce a Qura'an of its like if they could possibly do so, but in vain. They failed to withstand the challenge.

In conclusion, the paper has stated clearly and firmly that the Holy Qura'an is well preserved by Allah's Almighty, The Omnipotent. It is well guarded against falsehood from front and behind.

مستخلص:

تتبعت الورقة بدقة وصف القرآن الكريم لنفسه، فصنفت هذا الوصف إلى ثلاث تصنيفات واضحة المعالم: أولها وصف القرآن الكريم لنفسه بصفات مستمدة من أسماء الله الحسنى، وثانيها وصف القرآن الكريم بصفات ذات تأثير خاص على المؤمنين دون غيرهم، وثالثها وصف القرآن بصفات عامة.

ثم أبرزت الورقة دعوة القرآن الكريم الناس جميعاً بغض النظر عن أديانهم ومللهم للإيمان به، ومن ثم جعله منهجاً في حياتهم اليومية، ثم أبانت بجلاء مواقف الجميع من هذه الدعوة فكانوا بين مؤمن وكافر ومنافق.

وركزت الورقة بصفة خاصة على إدعاء المشركين بأن هذا القرآن مفترى من دون الله تعالى ورد القرآن على هذا الإدعاء بتحديه لهم بأن يأتوا بقرآن مثله مفترى إن استطاعوا فما استطاعوا.

وأكدت الورقة في نهايتها على حقيقة أن هذا القرآن محفوظ من قبل الله رب العالمين فلن يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

مقدمة

لاشك أن القرآن الكريم كتاب منزل من عند الله تعالى كما في قوله من سورة السجدة: (الم ❖ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ)، وفي قوله من سورة فصلت: (حم (١) تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)، أنزله الله جل ثناؤه على رسوله الكريم محمد بن عبد الله كما في قوله من سورة الإنسان: (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا)، وقوله من سورة الشعراء: (نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ❖ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ).

والقرآن الكريم موجود أصلاً في اللوح المحفوظ الذي ما من شيء قضى الله إلا وفي هذا اللوح، وهو فوق السماء السابعة كما جاء في الجلالين[1]، وهو أم الكتاب: (وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ) (الزخرف: ٤)، ثم أنزل القرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة من السماء الأولى، وكان ذلك في شهر رمضان: (شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ) (البقرة: ١٨٥)، وذلك في ليلة القدر: (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ) (القدر: ١)، وهي الليلة المباركة الواردة في قوله تعالى: (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ) (الدخان:٣)، ثم أخذ بعد ذلك ينزل على الرسول ﷺ على مدى ثلاثة وعشرين سنة: (وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا) (الإسراء: ١٠٦)[2].

---

1 الجلالين، جلال الدين محمد بن أحمد المحلي وجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي. تفسير الجلالين (٢٠٠٤م). مكتبة الصفا ١٢٧ ميدان الأزهر، القاهرة، مصر، ص ٥٩٠.

2 المراغي، أحمد مصطفى (١٩٨٠م). تفسير المراغي. مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ص٢٠٧.

أهداف الورقة

إن الدراسات في مجال القرآن الكريم وصلت مرحلة من التقدم لدرجة أن أصبحت هناك كليات ومعاهد وجامعات يدور محورها كلياً حول القرآن الكريم وعلومه، لكن هذه الورقة تتفرد بأن جعلت القرآن الكريم نفسه يتحدث عن نفسه، (وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا) (النساء: ١٢٢)، (وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا) (النساء: ٨٧)، وهذا هو هدف الورقة الأول.

إن حديث القرآن الكريم عن نفسه ذو مادة غزيرة لدرجة مذهلة حتى أن المرء ليكون منه بحثاً مطولاً متكامل الأركان إن أراد ذلك، لكن هذه المادة متناثرة بين ثنايا آي القرآن فلا يتنبه إليها الكثيرون، وهذه الورقة محاولة متواضعة لتبويب هذه المادة وإبرازها لتكون واضحة المعالم للقارئ المتعجل والقارئ المتأني على السواء، وهذا هو هدف الورقة الثاني.

إن هذه الورقة لتطلق العنان للقرآن الكريم ليصف لنا ذاته بأروع وأكمل وأبهى الصفات، كما أنها تبرز دعوته للناس على اختلاف أديانهم ومللهم وأهوائهم بضرورة الإيمان به ومن ثم تلاوته وتدبره بل والعمل به وتطبيقه في شأنهم الخاص والعام، كما أنها تعطيه المساحة الكاملة لبيان موقف من آمن به وتعرية من كفر به.

منهجية البحث

يتخذ هذا البحث المنهج الوصفي التحليلي لمعرفة أوصاف القرآن المختلفة التي أطلقها على نفسه، ولمعرفة إلى أي مدى كانت الاستجابة لنداءاته المختلفة لكافة الناس للإيمان به وتلاوته وتدبره وتطبيقه على حياتهم اليومية، وهذا المنهج من أكثر المناهج ملائمة لطبيعة مثل هذه الدراسة ذات الصبغة الدينية الخالصة.

المناقشة

أوصاف القرآن الكريم:

وصف الله تعالى القرآن الكريم بصفات عدة يمكن تصنيفها إلى ثلاث مجموعات، المجموعة الأولى هي وصف القرآن بصفات مستمدة من أسماء الله

الحسنى، والمجموعة الثانية هي صفات ذات تأثير خاص على المؤمنين، والمجموعة الثالثة هي صفات عامة.

الصفات المستمدة من أسماء الله الحسنى:

العظيم: (وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ) (الحجر: ٨٧)، والحق: (وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ) (فاطر : ٣١)، وسمي القرآن الحق لكثرة ما اشتمل عليه من الحق فكأن الحق منحصر فيه، والحكيم: (يس ❖ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ) (يس: ١ – ٢)، وحكيم ذو حكمة بالغة، والحكمة وضع كل شيء موضعه، وفي القرآن نرى وضع أحكامه الشرعية والجزائية في محلها اللائق بها، فليس فيه حكم مخالف للحكمة والعدل والميزان، والمجيد: (ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ) (ق: ١)، والمجد هو سعة الأوصاف وعظمتها، وأحق كلام يوصف بهذا هو القرآن الكريم الذي احتوى على علوم الآخرين والأولين، وحوى من الفصاحة أكملها ومن الألفاظ أجملها ومن المعاني أعمقها وأحسنها فهو وسيع المعاني، كثير البركات، جزيل العبارات، والكريم: (إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ) (الواقعة:٧٧)، أي كثير الخير، غزير العلم، فكل خير وعلم يستفاد من كلام الله ويستنبط منه، والنور: (فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) (التغابن:٨)، والنور ضد الظلمة، وما في القرآن من الأحكام والشرائع والأخبار لنور يهتدي به في ظلمات الجهل المدلهمة[1]، وعزيز: (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ) (فصلت: ٤١)، أي منيع من كل من أراده بتحريف أو سوء أو أن يأتي بمثله[2]، وعليّ: (وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ) (الزخرف: ٤)، أي عليّ في قدره وشرفه ومحله[3].

---

1 السعدي، عبد الرحمن بن ناصر (٢٠٠٤م). تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان. مكتبة الصفا، ١٢٧ ميدان الأزهر، القاهرة، مصر، ص ٦٦٢، ٦٦٥، ٧٧١، ٧٩٨، ٨٢٥.

2 الجلالين، ص ٤٨١.

3 ابن كثير، الإمام الحافظ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل (٢٠٠٤م). تفسير القرآن العظيم. مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة، المملكة العربية السعودية، ج٧، ص ٢٥٨٦.

صفات القرآن ذات التأثير الخاص على المؤمنين:

إن في القرآن صفات جليلة عظيمة النفع لا ينتفع بها سوى المؤمنون ومن هذه الصفات أنه: هدى من الضلالة ومرشد للعباد في المسائل الأصولية والفرعية ومعين للحق من الباطل وهذا يؤكده قوله تعالى: (إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا) (الإسراء: ٩)، وهو هدى للناس عامة: (هُدًى لِلنَّاسِ) (آل عمران: ٤)، وكونه هدى للناس عامة لا يناقض قولنا إن المؤمنين وحدهم هم الذين ينتفعون بالقرآن، لأن الهداية نوعان: هداية البيان وهداية التوفيق، فالمؤمنون حصلت لهم الهدايتان وغيرهم حدثت لهم هداية البيان ولم تحدث لهم هداية التوفيق.

وهو شفاء كما في قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ) (يونس: ٥٧)، فهو شفاء للمؤمنين من الأسقام البدنية والقلبية لأنه يزجر عن مساوئ الأخلاق وقبيح الأعمال ويحث على التوبة النصوح التي تغسل الذنوب وتشفي القلوب، وهو رحمة كما في قوله تعالى: (وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا) (الإسراء: ٨٢)، هو رحمة لأن السعادة والخير الكثير تصل به للذين يتبعونه ويقتفون أثره، وهو بشرى كما في قوله تعالى: (هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ) (النمل: ٢)، إذ به البشارة بالخير الدنيوي والآخروي لمن آمن به، وهذا يؤكده قوله تعالى: (إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا) (الإسراء: ٩)، وهو موعظة كما في قوله تعالى: (وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ) (النور: ٣٤)، فهو موعظة لما فيه من وعد ووعيد وترغيب وتهذيب، وهو تذكرة كما في قوله تعالى: (وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ) (الحاقة: ٤٨)، إذ يذكرهم بالعقائد الدينية والأخلاق المرضية والأحكام الشرعية، وهو ذكرى كما في قوله تعالى: (كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ) (الأعراف: ٢)، هو ذكرى للمؤمنين يتذكرون به ما ينفعهم وما يضرهم، ويتذكرون به ربهم وأسماءه وصفاته وما إلى ذلك، وهو ذكر كما في قوله تعالى: (قَدْ

أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا) (الطلاق: ١٠)، إذ يذكر المؤمنين بالخير والشر، وفوق ذلك كله هو فخر للرسول ﷺ ولقومه ومنقبة جليلة ونعمة عظيمة لهم كما في قوله تعالى: (وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ) (الزخرف: ٤٤)[1].

صفات القرآن العامة:

أنه بيان للناس: (هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ) (آل عمران: ١٣٨)، وتبيان: (وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ) (النحل: ٨٩)، ومبين: (حم ❖ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ) (الدخان: ١ – ٢)، وبينة: (فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ) (الأنعام: ١٥٧).

وبيان وتبيان ومبين وبينة صفات متقاربة المعاني تشير إلى أن القرآن الكريم يبين للناس الأمور على جليتها، فهو يبين لهم كل ما يحتاجونه من أصول الدين وفروعه ومعرفة ربهم ومعرفة حقوقه ومعرفة أوليائه وأعدائه ومعرفة ثواب الأعمال وجزاء العمل ويصدق ذلك قوله تعالى: (مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ) (الأنعام:٣٨).

والفرقان: (تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا) (الفرقان: ١)، أي الفارق بين الحق والباطل والحلال والحرام والهوى والضلال[2]، وبصائر للناس: (هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ) (الجاثية: ٢٠)، بمعنى أنه معالم يتبصرون بها في الأحكام والحدود وغير ذلك، ومبارك: (وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ) (الأنبياء: ٥٠)، فلا شيء أعظم بركة من هذا القرآن، فإن كل خير ونعمة وزيادة دنيوية أو آخروية بسببه وأثر عن العمل به، والصدق: (وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ) (الزمر: ٣٣)، ومصدق للكتب القديمة: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا) (النساء: ٤٧)، أي موافقاً لها لا مخالفاً ولا مناهضاً، أو بمعنى أن تلك الكتب أخبرت بالقرآن فلما وقع الخبر كان القرآن تصديقاً لذلك، وعربي: (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا

---

1 الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (١٩٨٧م). جامع البيان في تفسير القرآن. دار المعرفة، بيروت، لبنان، ج٢٥، ص ٤٦.

2 الطبري، ج١٨، ١٣٦.

﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (يوسف: ٢)، ذلك أن لغة العرب هي أفصح اللغات وأبينها وأكثرها تأدية للمعاني التي تقوم النفوس، وقريش تفهم تلك اللغة ولا يخفى عليها ألفاظها ومعانيها، ولو جعل القرآن بلغة أخرى لاعترض المكذبون وقالوا هلا بينت آياته ووضحت كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾ (فصلت: ٤٤)، وقيماً: ﴿قَيِّمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ (الكهف: ٢)، أي مستقيماً غير ذي عوج.

وهذه الآية تحمل درراً في وصف القرآن الكريم: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ (الزمر: ٢٣)، فهو ﴿أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ وهذا مدح من الله عز وجل لكتابه القرآن العظيم، وأعظم به من مدح، فأحسن الحديث على الإطلاق كلام الله، وأحسن الكتب المنزلة من كلام الله هذا القرآن، وإذا كان هو الأحسن علم أن ألفاظه أفصح الألفاظ وأوضحها وأن معانيه أجل المعاني. وهو ﴿كِتَابًا مُتَشَابِهًا﴾، أي متشابهاً في الحسن والائتلاف وعدم الاختلاف بوجه من الوجوه. وهو ﴿مَثَانِيَ﴾، أي أن الله تعالى ثنى فيه القصص، والأحكام، ودلائل التوحيد والنبوة، والوعد والوعيد، وصفات أهل الخير وصفات أهل الشر، وأسماء الله وصفاته[1]، فالقلب يحتاج دائماً إلى تكرار معاني كلام الله، وربما لو تكرر المعنى مرة واحدة لم يقع منه موقعاً ولم تحصل النتيجة منه. وقيل مثاني بذكر الشيء وضده كذكر المؤمنين ثم الكافرين، وكصفة الجنة ثم صفة النار وما أشبه بذلك[2].

وصف آيات القرآن الكريم:

وصفت آيات القرآن الكريم بأنها: بينات: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ (العنكبوت: ٤٩)، أي ظاهرات، جليات لا خافيات، مبينة للحق، ومبينات: ﴿رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ (الطلاق: ١١)، أي في حال كونها بينة واضحة.

---

1 الطبري، ج٢٣، ص ١٣٤.

2 السعدي، ص ٦٩٥.

ووصفت بعض آيات القرآن بأنها محكمات وأخر متشابهات كما في قوله تعالى: (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ) (آل عمران: ٧)، هذه الآية تبين أن في القرآن نوعان من الآيات: آيات محكمات أي واضحات الدلالة، ليس فيها شبهة ولاشك (هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ)، أي أصله الذي يرجع إليه كل متشابه، وهي معظمه وأكثره، وهناك آيات متشابهات، أي يلتبس معناها على كثير من الأذهان لكون دلالتها مجملة أو يتبادر إلى بعض الأفهام غير المراد بها، والواجب هنا أن يرد المتشابه إلى المحكم والخفي إلى الجلي، فبهذا الطريق يصدق بعضه بعضاً ولا يحصل فيه تناقض ولا معارضة، ولكن الناس انقسموا إلى فريقين (فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ)، أي ميل عن الاستقامة بأن فسدت مقاصدهم وصار قصدهم الغي والضلال وانحرفت قلوبهم عن طريق الهدى (فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ)، أي أنهم يتركون المحكم الواضح ويذهبون إلى المتشابه ويعكسون الأمر فيحملون المحكم على المتشابه (ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ)، فإن المتشابه تحصل به الفتنة بسبب الاشتباه الواقع فيه، وإلا فالمحكم الصريح ليس فيه محلاً للفتنة لوضوح الحق فيه لمن قصد إتباعه، (وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ) من المحكم والمتشابه (كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا)، وما كان من عنده فليس فيه تعارض ولا تناقض، بل هو متفق يصدق بعضه بعضاً، ويشهد بعضه لبعض[1].

وقد اختلف العلماء في المحكم والمتشابه، فقيل المحكمات هي ناسخه، وحلاله وحرامه وأحكامه وحدوده وفرائضه وما يؤمر به ويعمل به، والمتشابهات قيل إنها هي فواتح السور، والمنسوخ، والمقدم، والمؤخر، والأمثال، وما يؤمن به ولا يعمل به. وقيل أيضاً في المتشابه إنه هو الذي استأثر الله بعلم كنهه وحقيقته نحو حقائق صفات الله وكيفيتها وحقائق ما يكون في اليوم الآخر ونحو ذلك، فهذه لا يعلمها إلا الله ولا يجوز التعرض للوقوف عليها لأنه تعرض لما لا يمكن معرفته، كما سئل الإمام مالك عن

---

1 الطبري، ج٣، ص ١١٣، ابن كثير، ج٢، ص ٤٧٢.

قوله تعالى: (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) (طه: ٥)، فقال للسائل: (الاستواء معلوم والكيف مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة)[1].

دعوة القرآن الناس للإيمان به وتلاوته وتدبره والعمل به:

لقد دعا الله سبحانه وتعالى الناس على اختلاف مللهم وأديانهم أن يؤمنوا بهذا القرآن فقال مخاطباً المؤمنين: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا) (النساء: ١٣٦)، وقال مخاطباً الكفرة: (زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ❖ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) (التغابن: ٧ – ٨)، وقال مخاطباً أهل الكتاب: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا) (النساء: ٤٧)، فما موقف الجميع من هذه الدعوات؟

موقف المؤمنين من القرآن:

أما المؤمنون فقد آمنوا به: (آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ) (البقرة: ٢٨٥)، فدعاهم الله بعد ذلك لتلاوته فقال مخاطباً رسوله الكريم، ولنا في رسول الله أسوة حسنة: (وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا) (الكهف: ٢٧)، وقد مدح سبحانه وتعالى الذين يتلون كتابه في قوله: (إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ ❖ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ) (فاطر: ٢٩ – ٣٠)، وفي ابن كثير يقول البعض عن هذه الآية إنها آية القرآء[2].

---

1 الصابوني، محمد علي (الطبعة التاسعة). صفوة التفاسير. دار الصابوني، القاهرة، مصر، ج١، ص١٨٦.

2 ابن كثير، ج٦، ص٢٣٨٣.

ودعا الله المؤمنين إلى تدبر هذا القرآن: (أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا) (النساء: ٨٢)، (أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا) (محمد: ٢٤). وتدبر القرآن يكون بفهم معانيه المحكمة وألفاظه البليغة وتحديق الفكر فيه وفي مبادئه، وكلما زاد العبد تأملاً في القرآن وتدبراً ازداد علماً وبصيرة وأدرك بركته وخيره ودله ذلك التأمل والتدبر على الخير وحذره من الشر وأوصله إلى المطالب العالية وبين له الطريق الموصل إلى الله وعرفه بأسمائه وصفاته وإحسانه وأوضح له الطريق الموصل إلى جنته ورضوانه والطريق الموصل إلى ناره وغضبه. والتأمل هو المقصود من إنزال القرآن كما أخبر الله تعالى بذلك: (كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ) (ص: ٢٩).

إن هناك خاصية عجيبة في القرآن لا تحدث إلا للمتدبرين هذا الكتاب حقاً: (وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا) (الفرقان: ٧٣)، أي لم يكونوا عند سماعها لاهين عنها، بل مصغين فاهمين بصيرين بمعانيها، وهذه الخاصية هي أن القرآن يعمل عمله الرهيب في جلود أولئك المتدبرين وقلوبهم حيث: (تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ) (الزمر: ٢٣)، هذه القشعريرة للجلود واللين لها وللقلوب ما جاءت إلا لما فهموه من الوعد والوعيد والتخويف والتهديد، وفي الأنفال: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) (الأنفال: ٢)، فالإصغاء الجيد للقرآن يزيد المؤمن إيماناً على إيمان[1].

موقف المنافقين من القرآن:

وسط المؤمنين هناك المنافقون، فما موقفهم من القرآن الكريم ودعواته؟ هناك نوعان من المنافقين هما منافقو الأعراب حول المدينة كأسلم وأشجع وغفار ومنافقو المدينة: (وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ) (التوبة: ١٠١)، والمنافقون الأعراب هم أشد كفراً ونفاقاً لجفائهم وغلظة طباعهم وبعدهم عن سماع

1 الطبري، ج٢٣، ١٣٥.

القرآن: (الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) (التوبة: ٩٧).

وخطورة المنافقين أن المسلمين لا يعرفونهم فيأخذوا منهم الحذر: (لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ) (التوبة:١٠١) وهذا لا يتنافى مع قوله تعالى: (وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ) (محمد: ٣٠)، لأن هذا الأخير من باب التوسم فيهم بصفات يعرفون بها، لا من باب معرفة جميع من عنده من أهل النفاق على التعيين. وكانت سورة التوبة تسمى الفاضحة[1]، لأنها بينت أسرار المنافقين وهتكت أسرارهم فمازال الله يقول (ومنهم ومنهم)، ويذكر أوصافهم إلا أنه لم يعين أشخاصهم لأن الله ستار يحب الستر. وكان هؤلاء المنافقون يعيشون في خوف شديد ويحذرون جداً أن تتنزل سورة تفضحهم وتبين أسرارهم: (يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ) (التوبة: ٦٤)، وقد أوفى الله بوعده بأن أنزل سورة التوبة التي بينتهم وفضحت وهتكت أسرارهم.

وقد سجل لنا القرآن الكريم كثيراً من مواقفهم المخذية والتي فضحهم الله فيها ومن ذلك أنهم يرفضون التحاكم إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ بل يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت فكيف يتفق هذا مع الإيمان؟: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ❖ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا) (النساء: ٦٠ — ٦١)، وإذا ما أنزلت سورة محكمة، أي ملزم العمل بها، وذكر فيها القتال الذي هو أشق على النفس لم يثبت هؤلاء على امتثال هذه الأوامر وتراهم ينظرون إلى النبي ﷺ نظر المغشي عليه من الموت من شدة رعبهم وخوفهم من لقاء العدو: (وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ) (محمد: ٢٠)، وإذا ما أنزلت سورة ليؤمنوا بها ويعملوا بمضمونها ينتظرون الفرصة المواتية للاختفاء من أعين

---

1 الصابوني، ج١، ص ٥١٩.

المؤمنين والانصراف، عنهم فجزاهم الله حسب عملهم: (وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ) (التوبة: ١٢٧).

وإذا ما أنزلت سورة فيها أمر بالإيمان بالله والجهاد في سبيله أستأذن أصحاب الغنى منهم الذين لا عذر لهم: (وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ) (التوبة: ٨٦).

إن المنافقين – على عكس المؤمنين – لا ينتفعون أبداً بالقرآن الكريم بل يزيدهم نفاقاً على نفاق ورجساً إلى رجس: (وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٤) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ) (التوبة: ١٢٤ – ١٢٥).

موقف أهل الكتاب من القرآن الكريم:

كان اليهود قبل مجيء الرسول ﷺ يستنصرون على أعدائهم من المشركين إذا ما قاتلوهم بمجيئه المتوقع، فلما بعث رسول الله ومعه كتاب مصدق لما معهم ورأوا أن هذا الرسول من غيرهم كفروا به وبالكتاب الذي أنزل معهم: (وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ) (البقرة: ٨٩)، هذا الكفر وهذا الاستكبار مرده إلى حسدهم وكراهيتهم: (بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ) (البقرة: ٩٠)، ويؤكد هذا الحسد قوله تعالى: (أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا) (النساء: ٥٤).

وهم لم يكتفوا برفض الإيمان بكتاب الله وحسد المسلمين بل كانوا يدبرون المكايد ليلبسوا على الضعفاء من الناس أمر دينهم فاتفقوا على أن يظهروا الإيمان أول النهار ويصلوا مع المسلمين صلاة الصبح فإذا جاء آخر النهار ارتدوا إلى دينهم ليقول الجهلة من الناس إنما رد هؤلاء إلى دينهم اضطلاعهم على نقيصة وعيب في

دين المسلمين وهذا يرجع هؤلاء الجهلة عن دينهم: (وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) (آل عمران: ٧٢)[1].

وأهل الكتاب ليسوا سواء بل منهم أمة قائمة بأمر الله، مطيعة لشرعه، متبعة لنبيه، يقومون الليل، يكثرون التهجد، ويتلون القرآن، وما إلى ذلك: (لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ) (آل عمران: ١١٣ – ١١٤)، وهؤلاء هم المذكورون في قوله تعالى: (وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ) (آل عمران: ١٩٩).

موقف المشركين والكفرة من القرآن الكريم:

إن موقف الكفار واضح من دعوة القرآن لهم بالإيمان به: (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ) (سبأ: ٣١)، بل رفضوا مجرد الاستماع إليه: (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ) (فصلت: ٢٦)، وجملة (لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ) فيها شهادة من الكفار عن هذا القرآن، فإنهم لم يحكموا بغلبتهم لمن جاء بالحق إلا في حال الإعراض عنه والتواصي بذلك[2].

ولم يكتف المشركون بهذا بل حاولوا سد الأبواب الموصلة إليه: (وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ) (فصلت: ٥)، ولهذا فإن الله جازاهم حسب عملهم فقال: (وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا (٤٥) وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا) (الإسراء: ٤٥ – ٤٦)، وقد علل الله ذلك الجزاء بقوله: (نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ

---

1 الطبري، ج٣، ص ٢٣١.

2 السعدي، ص ٧١٤.

إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا) (الإسراء: ٤٧)، أي إنما منعناهم من الانتفاع عند سماع القرآن لأننا نعلم أن مقاصدهم سيئة، يريدون أن يعثروا على أي شيء ليقدحوا به وليس سماعهم لأجل الاسترشاد[1]، وإذا تصادف أن تليت عليهم آيات القرآن وهي مبينة للحق من الباطل يكادون يبادرون الذين يحتجون عليهم بالدلائل الصحيحة من القرآن ويبسطون إليهم أيديهم وألسنتهم بالسوء: (وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا) (الحج: ٧٢).

ولقد أصر المشركون على أن هذا القرآن ليس من عند الله سبحانه وتعالى، وفي هذا ذهبوا مذاهب شتى كلها كذب وبهتان وزور ومن ذلك: (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا * وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا) (الفرقان: ٤ – ٥)، ومن ذلك: (بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ) (الأنبياء: ٥)، ومن ذلك: (فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ * إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ) (المدثر: ٢٤ – ٢٥).

وجاء رد القرآن حاسماً على هذه الأقوال المتضاربة، فأما قولهم إن هذا القرآن مفترى من قبل سيدنا محمد ﷺ فيرد الله تعالى بقوله: (وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ) (يونس: ٣٧)، وبقوله: (قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ) (يونس: ١٦)، وبقوله: (وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ * فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ) (الحاقة: ٤٤ –٤٧)، أما قولهم أن قوماً آخرين قد أعانوه على افتراء هذا القرآن فيرد الله تعالى عليه بقوله: (وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ) (النحل: ١٠٣)، أما قولهم بأنه شاعر فيرد الله تعالى بقوله: (وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ) (الحاقة: ٤١)، أما قولهم أنه قول كاهن فيرد الله تعالى عليه بقوله: (وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ) (الحاقة: ٤٢)، أما

---

1 السعدي، ص ٤٢٧.

قولهم أنه قول شيطان رجيم فيرد الله عليه بقوله: (وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ) (التكوير: ٢٥)، وبقوله: (وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ❖ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ) (الشعراء: ٢١٠ – ٢١١).

ولم يكتف المشركون بالتشكيك في القرآن بل أخذوا يقترحون اقتراحات عجيبة ومن ذلك: (وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْءَانُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ) (الزخرف: ٣١)، أي هلا كان إنزال القرآن على رجل عظيم كبير في أعينهم من القريتين!، يعنون مكة والطائف كالوليد بن المغيرة من مكة وعروة بن مسعود الثقفي من الطائف[1]، وقد رد الله على اقتراحهم هذا بقوله: (أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ) (الزخرف: ٣٢)، ومن جملة اقتراحاتهم العجيبة: (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا) (الفرقان: ٣٢)، وقد رد الله عليهم بقوله: (كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا) (الفرقان: ٣٢)، فإن نزول القرآن عند حدوث السبب يكون له موقع عظيم، وتثبت كثير، أبلغ مما لو كان نازلاً قبل ذلك، ومن اقتراحاتهم العجيبة: (وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ) (يونس: ١٥)، وقد رد الله عليهم بقوله في نفس الآية: (قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ).

وإذا كان المشركون يعتقدون أن هذا القرآن من أقوال البشر فتحداهم القرآن وهم أهل البلاغة بأن يأتوا بمثله فقال تعالى: (فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ) (الطور: ٣٤)، ولما لم يستطيعوا تحداهم بأن يأتوا بعشر سور مفتريات فقال: (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) (هود: ١٣)، ولما لم يستطيعوا تحداهم بأن يأتوا بسورة واحدة من مثله فقال: (وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) (البقرة: ٢٣)، وفشلوا أيضاً في هذه. ولقد حاول بعضهم أن

---

1 الطبري، ج٢٥، ص٣٩.

يـأتي بكـلام مثلـه فجـاءت محـاولاتهم سـخيفة ومـضحكـة[1]، وفي نهايـة المطـاف قـرر القرآن الحقيقة الباقية: (قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا) (الإسراء: ٨٨).

وبعد فقد تكفل الله نفسه بحفظ هذا القرآن الكريم: (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) (الحجر: ٩)، وقد حفظه في حال إنزاله وبعد إنزاله، ففي حال إنزاله حفظه من استراق كل شيطان رجيم، وبعد إنزاله حفظه الله في قلب رسوله، واستودعه في قلوب أمته، كما حفظه من كل ما يشينه من تناقض واختلاف، وزيادة ونقصان وتحريف[2]. ويقول الله سبحانه وتعالى أيضاً عن حفظه: (لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ) (فصلت: ٤٢) حيث لا يستطيع ذو باطل تغيير شيء من معانيه وذلك هو الإتيان من بين يديه، ولا إلحاق ما ليس فيه وذلك هو الإتيان من الخلف.

---

1 ابن كثير، ج١، ص ٨٩.

2 الطبري، ج٢٤، ص٢٤.

المراجع

١. **ابن كثير**، الإمام الحافظ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل (٢٠٠٤م). تفسير القرآن العظيم. مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة، المملكة العربية السعودية.

٢. **الجلالين**، جلال الدين محمد بن أحمد المحلي وجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي. تفسير الجلالين (٢٠٠٤م). مكتبة الصفا ١٢٧ ميدان الأزهر، القاهرة، مصر.

٣. **الطبري**، أبو جعفر محمد بن جرير (١٩٨٧م). جامع البيان في تفسير القرآن القرآن. دار المعرفة، بيروت، لبنان.

٤. **الرازي**، الإمام محمد فخر الدين ابن الإمام العلامة ضياء الدين عمر. (١٩٨٥م). تفسير الفخر الرازي. دار الفكر، بيروت، لبنان.

٥. **الزمخشري**، أبو القاسم جار الله محمد بن عمر الخوارزمي. الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل. دار المعرفة، بيروت، لبنان.

٦. **السعدي**، عبد الرحمن بن ناصر (٢٠٠٤م). تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان. مكتبة الصفا، ١٢٧ ميدان الأزهر، القاهرة، مصر.

٧. **الصابوني**، محمد علي (الطبعة التاسعة). صفوة التفاسير. دار الصابوني، القاهرة، مصر.

٨. **المراغي**، أحمد مصطفى (١٩٨٠م). تفسير المراغي. مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر.